هل الطبيعة كتاب؟ *المقالة السادسة: الطيور... حين يفتح الجناح سؤال السماء*

مقدمة:

قد يحدث أن نجلس في مكان هادئ، أو نسير في طريق اعتدنا المرور به، فيعبر طائر فوقنا، ويفتح جناحيه، ثم يمضي في السماء حتى يغيب عن أبصارنا. نتابع حركته لحظات، وربما نعجب بخفته، ثم نعود إلى ما كنا فيه، وكأن شيئًا لم يحدث. لكن ماذا لو احتفظنا بذلك المشهد قليًلا في أذهاننا، وحاولنا أن ننظر إلى الطائر لا بوصفه صورة عابرة، بل بوصفه مخلوقًا يحمل في بنيته وحركته أسئلة تستحق التأمل؟

إن الطائر لا يطير لمجرد أنه يريد الطيران؛ فالرغبة وحدها لا تمنح الجسد القدرة على مغادرة الأرض. وراء تلك الحركة جناح له بنية خاصة، وريش يؤدي وظائف متعددة، وعضلات تحركه، وجسم يتفاعل مع الهواء، وقدرات تساعد الطائر على توجيه مساره. وما يبدو لنا حركة بسيطة لا تستغرق سوى ثوانٍ، يقوم على خصائص وعلاقات لا نراها كلها بمجرد النظر.

وهكذا يعيدنا الطائر إلى السؤال الذي رافق هذه السلسلة منذ بدايتها: إذا كانت الطبيعة كتابًا، فكيف نقرأ ما فيها؟ وهل تكفي معرفة كيفية عمل الأشياء، أم أن فهمها يستطيع أن يقودنا إلى أسئلة أعمق عن الوجود، وعن الإنسان الذي أُعطي عقًلا يستطيع أن يتأمل ما لم يصنعه، ويتعلم من مخلوقات لم يخترعها؟

حين لا يكون الجناح مجرد جناح

إذا تأملنا جناح الطائر عن قرب، وجدنا أن الريش ليس زينة خارجية فحسب، بل يؤدي دورًا في الطيران وتوجيه الحركة والعزل الحراري، وأن شكل الجناح وطريقة تحريكه يؤثران في تفاعل الطائر مع الهواء، وفي قدرته على الارتفاع والانزلاق وتغيير الاتجاه. وحين نتابع الطيور المختلفة، نكتشف أنها لا تطير جميعًا بالطريقة نفسها؛ فهناك طيور تعتمد على التحليق والاستفادة من حركة الهواء، وأخرى ترفرف بأجنحتها بسرعة، كما تختلف أشكال الأجنحة باختلاف أنواع الطيور والبيئات التي تعيش فيها.

ولا تنتهي القصة عند الجناح نفسه، لأن الطيران جزء من حياة الطائر، يرتبط بطريقة بحثه عن الغذاء، وهجرته، وتجنبه للأخطار، واختياره المكان الذي يستقر فيه. فالمخلوق الذي نراه في السماء يحمل معه تاريخًا من التكيف مع بيئته، وقدرات تشكلت ضمن حياة كاملة، لا ضمن وظيفة واحدة منفصلة عن سائر وظائفه.

لقد تعلم الإنسان من مراقبة الطيور أشياء كثيرة، واستفاد من دراسة حركتها في تطوير بعض أفكار الطيران وتصميماته. غير أن الطائر يظل أكثر من نموذج هندسي نستعير منه فكرة نافعة؛ فهو مخلوق حي، له حاجاته وطريقته في العيش، ووجوده أوسع من المنفعة التي يمكن أن نحصل عليها منه.

ولعل هذا هو أول ما ينبغي أن نتعلمه حين نقرأ الطبيعة: أن نرى المخلوق قبل أن نسأل عما يمكن أن نأخذه منه، وأن ندرك أن فهم الشيء لا يعني اختزاله في فائدته، بل قد يكشف لنا من جوانب وجوده ما لم نكن نلتفت إليه.

ماذا يقول القرآن حين يدعونا إلى النظر؟

يلفت القرآن نظر الإنسان إلى الطيور في مشهد مألوف، لكنه يدعوه إلى ألا يمر عليه مرورًا عابرًا، فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

تبدأ الآية بدعوة إلى الرؤية، وكأنها تلفت انتباه الإنسان إلى أن رؤية المشهد لا تعني بالضرورة أن يكون قد تأمله. فقد يرى الطائر كل يوم، ويعرف أنه يطير، لكنه لا يسأل كيف تحدث هذه الحركة، ولا ما الذي يجعلها ممكنة، ولا ماذا يمكن أن يتعلم من المخلوق الذي يعبر أمامه ثم يمضي.

وحين يصف القرآن الطيور بأنها مسخرات في جو السماء، فإنه يضع المشهد في أفق يتجاوز مجرد المشاهدة، ويدعو الإنسان إلى النظر في الخلق وما أُتيح للمخلوقات من قدرات. وليس معنى ذلك أن نتجاهل الأسباب التي يدرسها العلم، أو أن نبحث عن جانب يعجز العلم عن تفسيره حتى نجعله دليلًا على وجود الخالق؛ فالطيران يمكن فهم جوانب كثيرة من آلياته، وهذا الفهم لا ينتقص من قيمة التأمل الديني في أصل الوجود ومعناه.

إن معرفة كيفية حركة الجناح تجيب عن سؤال مهم، لكنها لا تجعل جميع الأسئلة الأخرى بلا معنى. فالعلم

يدرس خصائص الطيران وشروطه، بينما يستطيع الإنسان، انطلاقًا من معرفته، أن يتأمل أيضًا في وجود عالم يمكن للعقل أن يفهم بعض قوانينه، وفي حقيقة أنه هو نفسه جزء من هذا العالم، وليس مراقبًا يقف خارجه.

وهكذا لا تكون الآية بديلًا عن البحث في الطبيعة، بل دعوة إلى ألا تنتهي رؤيتنا عند ظاهرها، وأن نجمع بين دقة النظر واتساع التأمل، من دون أن ننسب إلى العلم ما لم يثبته، أو نحمل النص القرآني على مصطلحات لم يأت بها.

حين تتعدد الأجنحة وتختلف الطرق

تأمل سربًا من الطيور وهو يعبر السماء، وكيف تتغير اتجاهاته، وتتقارب أفراده ثم تتباعد، حتى يبدو المشهد من بعيد كأنه حركة واحدة متناسقة. وقد يبدو لنا أن وراء هذه الحركة خطة مشتركة تدير كل طائر، لكن دراسة السلوك الجماعي تكشف أن بعض صور الانتظام يمكن أن تنشأ من استجابات الطيور بعضها لبعض، ومن تفاعلها مع البيئة، من غير أن يعني ذلك وجود قائد يخطط لكل حركة أو أن الطيور تتبع جميعًا آلية واحدة.

وهنا تتجلى قيمة النظر العلمي؛ إذ لا يكتفي بالانبهار بالمشهد، بل يحاول أن يفهم كيف يتكون، وما العوامل التي تؤثر فيه، وأين تتشابه الظواهر وأين تختلف. وكلما عرفنا أكثر، أصبح وصفنا للطبيعة أدق، وتعلمنا أن المشهد الذي يبدو بسيطًا قد يخفي وراءه علاقات متعددة.

لكن المعرفة لا تنتهي عند تفسير الحركة، كما أن جمال الحركة لا يغني عن فهمها. فقد ننظر إلى سرب الطيور فنتذوق جماله، ثم ندرس سلوكه فنعرف بعض أسبابه، ثم نتأمل في ما تعلمناه فنكتشف أن العالم أوسع مما كانت تمنحنا إياه النظرة العابرة.

وليس المطلوب أن نستخرج من كل ظاهرة طبيعية برهانًا عقائديًا مباشرًا، بل أن نسمح لكل سؤال بأن يأخذ حقه. فالتفسير العلمي لا يلغي التأمل الفلسفي، والتأمل الفلسفي لا يعفينا من الدقة العلمية. وبينهما يقف الإنسان، محاولًا أن يفهم العالم الذي يعيش فيه، وأن يعرف ما الذي يترتب على معرفته به.

في وصف الطاووس ولطيف الصنعة

لم يكن التأمل في الطيور غريبًا عن تراثنا، ومن أجمل شواهده وصف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام للطاووس في نهج البلاغة. فقد توقف في وصفه عند تناسق الألوان، وتفاصيل الريش، وتنوع الهيئة، حتى يتحول الطائر في النص من مشهد جميل إلى موضوع يستدعي إمعان النظر.

ومن عباراته في وصف الطاووس: "وَنَضَّدَ أَلْوَانَهُ فِي أَحْسَنِ تَنْضِيدٍ". وهي عبارة قصيرة، لكنها تدعونا إلى تأمل ما اعتدنا رؤيته؛ فالألوان التي قد تمر أمام أعيننا بوصفها زينة، تصبح عند إمعان النظر جزءًا من هيئة متكاملة، تتجاور فيها التفاصيل حتى يتكون منها ذلك الجمال الذي نراه.

ولا تكمن قيمة هذا الوصف في أن نحوله إلى تقرير علمي حديث، أو أن نستخرج منه معلومات لم يقصد النص بيانها، بل في أنه يعيد تدريب العين على الملاحظة. فبدل أن نكتفي بقولنا إن الطاووس جميل، نتوقف عند الألوان وتناسقها، وعند الريش وتفاصيله، وعند قدرة الوصف على أن يجعلنا نرى في المخلوق الواحد وجوهًا متعددة لم ننتبه إليها من قبل.

وهنا يلتقي التأمل التراثي مع المعرفة العلمية من غير أن يختلطا؛ فكلاهما، بطريقته، يدعونا إلى تجاوز النظرة السريعة، لكن لكل منهما غايته وأدواته. فالعلم يسأل عن الخصائص والوظائف والأسباب، والتأمل يفتح أمام الإنسان باب الدلالة والمعنى، وقد يجتمعان في نفس واحدة ترى الجمال، وتبحث عن تفسيره، ثم تتأمل في موقعها من هذا الوجود.

ولعل هذا ما يجعل وصف المخلوقات في تراثنا أكثر من مجرد تسجيل لجمالها؛ إنه تذكير بأن العالم يستحق أن يُنظر إليه بعناية، وأن المعرفة تبدأ أحيانًا من ملاحظة تفصيل صغير كنا نظن أننا نعرفه، حتى نكتشف أننا لم نمنحه من انتباهنا ما يستحق.

الطائر والإنسان: القدرة والمعرفة

يستطيع الطائر أن يطير بجسمه وجناحيه، أما الإنسان فقد احتاج إلى الملاحظة والتجربة وتراكم المعرفة وصناعة الأدوات حتى أصبح قادرًا على الطيران. والفارق هنا ليس أن أحدهما يملك قدرة والآخر يفتقر إليها فحسب، بل إن الإنسان يستطيع أن يجعل من المخلوق الذي يراه موضوعًا للفهم، وأن يقارن بين الظواهر، ويختبر أفكاره، ثم يحول ما يتعلمه إلى معرفة وتقنية.

وهذه قدرة عظيمة، لكنها تضع أمام الإنسان مسؤولية لا تقل أهمية عنها. فالمعرفة قد توسع قدرته على

تغيير العالم، لكنها لا تضمن وحدها أن يكون أكثر حكمة في استخدام ما عرفه، ولا أن يكون أرحم بالمخلوقات التي يدرسها، ولا أكثر عدًلا في تعامله مع الآخرين. إن معرفة ما نستطيع فعله لا تجيب وحدها عن سؤال ما ينبغي لنا فعله.

وهنا يظهر معنى الترقي الإنساني الذي تتجه إليه هذه السلسلة. فالإنسان لا يرتقي بمجرد أن تتضاعف معلوماته، بل حين تتغير رؤيته لنفسه وللعالم، وحين تتحول المعرفة إلى بصيرة، والقدرة إلى مسؤولية، والإدراك إلى اختيار واعٍ. وقد يزداد المرء علمًا من دون أن يتغير سلوكه، لكن المعرفة تبلغ أثرًا أعمق حين تدفعه إلى مراجعة نفسه وإدراك حدودها.

وحين يتأمل الإنسان الطائر، فهو لا يتعلم شيئًا عن جناحيه فحسب؛ بل يتعلم أيضًا أن هناك قدرات في العالم لم يصنعها، وأنه يستطيع فهم بعض جوانبها من دون أن يحيط بها كلها. وهذا الإدراك لا ينتقص من مكانته، بل يحرره من وهم أن قيمة العالم تُقاس بما يستطيع السيطرة عليه أو الانتفاع به.

ومن هنا يمكن أن يصبح التأمل في المخلوقات طريقًا إلى معرفة ا، لا لأن كل تفصيل فيها يقدم وحده برهانًا جاهزًا، بل لأن النظر الصادق يوسع وعي الإنسان بالوجود، ويجعله أكثر انتباهًا إلى افتقاره، وإلى ما أُعطي من قدرة على الفهم، وإلى المسؤولية التي ترافق هذه القدرة. فالمعرفة التي لا تعود على صاحبها بتواضع أو شكر أو عمل صالح قد تزيد ما يحمله من معلومات، لكنها لم تبلغ بعد كل ما يمكن أن تبلغه من أثر في حياته.

الجناح الذي يعيدنا إلى السؤال

في المرة القادمة التي ترى فيها طائرًا يعبر السماء، ربما ستتابع حركته قليًلا أكثر مما اعتدت. ستلاحظ كيف يفتح جناحيه، أو يغير اتجاهه، أو يهبط بعد أن ظل يحلق في الهواء. وقد لا تصل في تلك اللحظة إلى اكتشاف جديد، لكنك ستكون قد منحت المشهد شيئًا افتقده من قبل: انتباهك.

ومن هذا الانتباه تبدأ القراءة؛ أن نرى ما أمامنا، ثم نسأل عنه، ونبحث في أسبابه، ونفكر في معناه، ونسمح لما نتعلمه بأن يغير شيئًا في نظرتنا إلى أنفسنا والعالم. فالطبيعة ليست مجموعة من الأشياء التي نمر بها فحسب، بل عالم نعيش فيه، ونحاول فهمه، ونتعلم من خلاله شيئًا عن حدود معرفتنا ومسؤولية وجودنا.

لقد بدأنا مع قطرة الماء، ثم وقفنا أمام الجبل، ورفعنا أبصارنا إلى السماء، وتأملنا الأنعام وما يصلنا منها من نعم، ثم تابعنا الطيور وهي تفتح أجنحتها وتعبر الفضاء. وفي كل محطة حاولنا أن نقرأ شيئًا من كتاب الطبيعة، وأن نتجاوز المشهد العابر إلى ما يثيره من أسئلة عن الوجود والإنسان ومعنى المعرفة.

لكن قراءة الطبيعة تعيدنا، في نهاية المطاف، إلى أنفسنا؛ فالإنسان ليس مجرد ناظر إلى هذا العالم، بل هو أيضًا مخلوق يحاول أن يفهم موقعه فيه، وأن يعرف الغاية من معرفته، والمسؤولية التي ترافق قدرته على الفهم والاختيار.

وهنا نصل إلى السؤال الذي ستتناوله مقالتنا القادمة: الإنسان... من يقرأ الكتاب؟ سننتقل فيها من التأمل في المخلوقات من حولنا إلى التأمل في الإنسان نفسه؛ في عقله الذي يقرأ، وقلبه الذي يتأمل، وقدرته على أن يجعل من المعرفة طريقًا إلى البصيرة والارتقاء.